

في روع القاريء بهذه السلسلة الباهرة من الصفات أن الكامل كان من أصحاب العصمة الأخلاقية الذين لا يعصون الفضيلة ما تأمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، بل هو - وغيره من الشخصيات التاريخية الممتازة - مزيج من الصفات الإنسانية العامة، مع غلبة نواحي الخير فيه على نواحي الشر في أكثر الأحيان، فضلا عن قدرة على التمييز بين الحقيقي والزائف من المصالح. أما قبل، فليس قليلا أن ينشأ الكامل محمد ابنا للسلطان العادل، وأن يرى الابن أباه يعمل دائباً بمختلف الوسائل الطويلة والقصيرة على تحقيق غاية واحدة، وهي إبقاء الدولة الأيوبية وحدة متماسكة في قبضة سلطان واحد، هو العادل نفسه. ومن وسائل العادل لتحقيق هذه الغاية إلقاء العداوة والبغضاء بين أبناء أخيه صلاح الدين، وإثارة الحروب بينهم، مع مهادنة الصليبيين، وتسوية ما بينهم وبين المسلمين بالمفاوضات السلمية، والصدقات الشخصية، التي يرجع بعضها إلى أيام صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، حين بلغ الود بين الملك العادل والملك الإنجليزي، أن رتشارد أفرس الكامل - أي جعله فارسا - بمدينة عكا سنة 1192 م، حسب الطقوس الأوربية الغربية، والكامل وقتذاك في الثانية عشرة من عمره. ومنذ صارت الدولة